دور مدينة تطوان في الإصلاح العسكري بالمغرب خلال القرن التاسع عشر

الأستاذة حنان أنجا
باحثة في تاريخ شمال المغرب
المغرب

مقدمة:

شهد المغرب خلال القرن 19 م أحداثا بارزة، كسرت شوكته، وفضحت ضعفه وأظهرت جليا بما لا يدع مجالا للشك تخلفه على جميع الأصعدة، وهذا ما أسهم في ظهور حركة إصلاحية شملت مجالات عدة كالإدارة والاقتصاد والجيش، سعى السلاطين العلويون من خلالها إلى تضييق الهوة السحيقة فيما كان يرزح فيه المغرب من ظلمات الجهل والتخلف، وبينما وصلت إليه الدول الأوروبية من تطور علمي أهلها لاحتلال الصدارة في العالم، وتوجيه أنظارها للاستحواذ على خيرات الدول الضعيفة خاصة في إفريقيا، آسيا، ومنها المغرب.

من هذا المنطلق يروم هذا المقال الحديث عن الدور الذي لعبته مدينة تطوان في الإصلاحات العسكرية بالمغرب خلال القرن التاسع عشر، وذلك لاعتبارات عدة أولها أن مدينة تطوان لعبت دورا فاعلا ومؤثرا على ساحة الأحداث المغربية والدولية خلال القرن 19، ويكفي أنها كانت الهدف الثاني التي في السباق الإمبريالي المحموم، لذا كان من البديهي بالنظر إلى موقعها الاستراتيجي الحساس أن تكون مرتعا خصبا لعدد من الإجراءات الإصلاحية المتركزة أساسا حول الجيش.

فما أشكال الضغوط الاستعمارية العسكرية التي تعرض لها المغرب خلال القرن التاسع عشر؟ وما دور هذه الضغوط في مبادرة المغرب القيام بالإصلاحات العسكرية؟ وما الدور الذي لعبته مدينة تطوان في هذا المشروع الإصلاحي؟

أولا: لمحة عن أشكال الضغوط الاستعمارية العسكرية على المغرب خلال القرن التاسع عشر

سار مخطط التسرب الامبريالي للتدخل في شؤون المغرب على ثلاث مراحل، الأولى تتمثل في ضربة عسكرية تفقد المغرب وسائل دفاعه وتفقده أيضا كل ثقة بالنفس دفعة واحدة وهو ما جرى في معركة إيسلي وحرب تطوان، وبموازاة ذلك نجد الاتفاقيات التجارية مع إنجلترا وفرنسا في سنتي 1856م و1863م على التوالي. وفي الأخير تأتي الحيلة المالية لترغم الدولة المغربية المغلوبة على أمرها الدخول في مسلسل القروض، وبالتالي التخلي عن قسط من مداخيلها الجمركية لفائدة الدول الأجنبية[1].

1) دور هزيمة إيسلي في المبادرة إلى إصلاح الجيش المغربي خلال القرن 19م.

لقد كان احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م، بمثابة ناقوس خطر للسلطان عبد الرحمان بن هشام وذلك لأنه كان يعلم أن الأطماع الفرنسية لن تقف في حدود معينة وإنما ستسعى لضم المغرب من أجل تأسيس إمبراطورية لها في شمال إفريقيا، فبالرغم من التآكل والضعف الذي أصاب الجيش المغربي إلا أنه وإلى حدود هذا الاحتلال كان لا يزال يحتفظ بمظهر القوة وبسمعة خارجية مبنية على انتصارات ماضية[2]، لكن هذه الفعالية لم تصمد أمام التحديات الجديدة، فمنذ الوهلة الأولى لهذا الاستقرار كان واضحا أن العلاقة مع الجار الجديد لن تكون علاقة تعايش سلمي، ويدل تحمس الجهات الرسمية والشعبية للجهاد على وعي الجميع برهانات هذا الصراع، إلا أن التحمس لحمل السلاح يدل أيضا على أن المغرب لم يكن واعيا بالفوارق بينه وبين الدول الأوروبية خاصة في الميدان العسكري[3].

ونظرا لمساعدة السلطان عبد الرحمان بن هشام للأمير عبد القادر الجزائري، وإمداده بالجيش والسلاح "**تعللت فرنسا بأن الهدنة قد انقضت، فتقدم السلطان على أهل الثغور الاستعداد والحراسة وإرهاف الحس لما عسى أن يحدث، واجتمع له في هذا الاستنفار 30 ألف فارس، ونظرا للأحمال الثقيلة التي كان يحملها الجيش وانعدام النظام وغياب روح الوطنية**[4]**، انهزم الجيش المغربي، و"كانت مصيبة عظيمة وفجيعة كبيرة لم تفجع الدولة الشريفة بمثله"**[5].

2)هزيمة تطوان ضد إسبانيا سنة 1859م– 1860م

طالبت إسبانيا بعد وقوع مشاحنات بين أهل قبيلة أنجرة وسكان سبتة بقتل 12 رجلا من أهل أنجرة، وقد توفي السلطان عبد الرحمان بن هشام في هذه الظرفية، ورفض السلطان الجديد محمد الرابع هذه المطالب ومال إلى الحرب خاصة وأن حاشيته هونت عليه أمر العدو إسبانيا[6].

"**وكانت الحرب بينهم سجال والنصر للمسلمين في غالب الأحوال إلى أن تكاسلوا عن القتال وقاعدوا، وتخالفوا عما جزموا به وتواعدوا، حتى أن نحو 100 من المسلمين يقاتلون ونحو 1000 أو 2000 يتفرجون من بعيد، يتلصصون على ما وجدوه من محلة المسلمين فانكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله، وزال حجاب الهيبة عن بلاد المسلمين لذمامة الإصبنيول حينئذ وحقارته لدى الدول العظام، إذ غلب الحقير أشد للحسرة وأكد للفضيحة**"[7].

هذه الحرب غير متكافئة التي فرضتها إسبانيا على المغرب منحت لها امتيازات كثيرة هامة أكدتها بنود معاهدتي 26 أبريل 1860 و20 نونبر 1861، والتي كانت كلها لفائدة إسبانيا التي حصلت أيضا على تنازلات لم تتوصل بريطانيا إلى الحصول عليها، مثل حق الملكية للأجانب[8].

يظهر من هزيمتي إيسلي وتطوان أن الجيش المغربي لم يكن مدربا تدريبا كافيا وكان المتطوعة يعطون السلاح ويهبون للدفاع عن حوزة الوطن، كما انعدم النظام حول تقسيم الجيش إلى فرسان ومشاة، فالخيالة ليسوا في الحقيقة إلا مشاة راكبين كما لاحظ ذلك جنرال ألماني والذي شهد حرب تطوان ضد الجيش الإسباني، فلم يكن هناك فرق بينهم ولا من ناحية النظام ولا من ناحية السلاح.

وبالنسبة لهزيمة إيسلي فبالرغم من أن الجيش الفرنسي وجد نفسه محاطا بقوات تفوقه من ناحية العدد وتقاتل باندفاع، فقد استطاع بفضل الاستراتيجية المحكمة التي اتبعها الجنرال بوجو أن ينتصر في المعركة.

أما بخصوص هزيمة تطوان فقد كان الجيش الإسباني يواجه من طرف قوات قبلية بطريقة بدائية في حين أن القوات المصاحبة لمحلات مولاي العباس والمولى احمد هزمت بسهولة وانتهى الدور العسكري للجيش المخزني باحتلال تطوان.

وصفوة القول فإن كلا الهزيمتين راجع لكون الجيش المغربي جيش تقليدي ذو أسلحة عتيقة ينقصه التنسيق والنظام ووجود خطط حربية عصرية، أمام جيوش نظامية مجهزة بأسلحة متطورة تتحرك تبعا لتخطيطات محكمة ودقيقة وإستراتيجية واضحة[9].

ثانيا: مظاهر الإصلاحات العسكرية بتطوان خلال القرن 19م.

1) خصوصية مدينة تطوان بالإصلاح العسكري خلال القرن 19م.

تقع مدينة تطوان جنوب مدينة سبتة على منحدر جبل درسة بالقرب من البحر الأبيض المتوسط والذي يربطها به وادي مرتيل الصالح للملاحة خلال القرون الوسطى إلى حدود القرن 19 م[10].

وبالرغم من أن مدينة تطوان ليست من كبريات المدن المغربية إلا أنها حظيت على مر تاريخها باهتمام سلاطين المغرب، خاصة منهم العلويين، نظرا لموقعها القريب من أوروبا، لذا كانوا يعولون عليها في الكثير من المهامّ، خاصة العسكرية، ولم يكتفوا بالإشراف على شؤون مدينة تطوان فحسب بل يسيرون تلك الشؤون تسييرا باهتمام كبير[11].

وخلاصة القول فإن مدينة تطوان وإن كانت منذ إعادة تأسيسها أواخر ق 15م على يد المهاجرين الأندلسيين قد بنيت في جو سادته روح المقاومة، نظرا لسيطرة الخطر الخارجي على النفوس، فإن هذا الروح لازمتها طيلة القرن 19 م[12]، فقد كانت مراسلات السلطان عبد الرحمان حول موضوع الحث على الجهاد والترغيب في الاستعداد له متتالية، "لأن العدو الكافر ليس بغافل عنهم حتى يغفلوا فينبغي أن تكون أحرص الناس على جهادهم.

وقد سعى السلطان عبد الرحمان لبلوغ هدفه في ترغيب التطوانيين في الجهاد إلى استعمال الجانب المعنوي وهو تضمين رسائله بآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة تبرز مدى الأجر العظيم للجهاد، وكذا حث خطباء الجمعة في المساجد على التركيز على موضوع الجهاد وأيضا على الجانب المادي من خلال الزيادة في رواتب المرابطين على الثغور "لتقوية العسة"[13].

2: مظاهر الإصلاح العسكري بتطوان خلال القرن التاسع عشر الميلادي:

2-1) تحديث الجيش المغربي خلال القرن 19م.

لقد أشعرت معركة إيسلي المخزن بضعف النواة العسكرية المغربية، إلا أن المولى عبد الرحمان حاول إعادة تنظيم الجيش قبل سنة 1844م، وإن كانت الوثائق اللازمة غير متوفرة لإبراز نوع النظام الذي حاول السلطان إدخاله على الجيش التقليدي ومدى ارتباط هذه المحاولة بالاحتلال الفرنسي للجزائر، بالرغم من وجود رسائل سلطانية متعلقة بالتأكيد على توافر السلاح وازدياد الحاجة إلى أعداد كبيرة منه، وهذا ما عملت تطوان على توفيره خلال هذه الفترة، إضافة إلى استصلاح بعض الحصون والأبراج وازدياد الاهتمام بدورها الدفاعي الهادف إلى تأمين بنايات عسكرية من هذا النوع لتلافي السقوط المبكر في يد الأعداء الكفار حسب التعبير الدائم للمولى عبد الرحمان، تدل على أنه كانت هناك على الأقل حركة اهتمام بالجيش، تمثلت في محاولة الحد من سيطرة القواد العسكريين وظلمهم للجنود، والاهتمام بجيش الثغور والمدن، وإعادة النظر في أجورهم وكسوتهم، وهذا يعد إصلاحا في حد ذاته.[14]

وتظهر أولى بوادر الإصلاح العسكري في تطوان حين أراد المولى عبد الرحمان إحياء سنة الجهاد سنة 1250 هـ، حيث أمر قائد تطوان أن يمون الأسطول المغربي القائم بهذه المهمة، كما أمر باختيار ثلاثين من خيرة جنود تطوان للالتحاق بهذا الأسطول، و"أن **يتخيرهم من النجادة والنجدة بمكان**، وأن يكونوا صغارا أقوياء يقبلون التعلم[15].

وبعد هذا التاريخ بقليل نجد بروز ميل لدى السلطان لتعليم فن "الطبجية" على أصوله لشبان تطوان، وقد عين لهذا الغرض السيد "محمد نخشه" صاحب الخبرة الطويلة في هذا الميدان، والتي اضطلع عليها السلطان عندما كان في خدمته وكافأه عليها، وقد عين لهم مرتبا[16].

ومع توالي الأحداث الدولية التي فرضت منطق القوة وأملت ضرورة إحداث عسكر نظامي، ازدادت رغبة المولى عبد الرحمان في "العدة والاستعداد، وقد دشن المولى عبد الرحمان هذه المحاولات بتجنيد بعض العناصر الجديدة التي أضفيت عليها صفة وحدات دائمة بتموينها ودفع رواتبها وذلك انطلاقا من 1261هـ/1844م، ومن المؤكد أن فرقا من هذا العسكر كانت موجودة سنة 1846م داخل الجيش المخزني، وأن المولى عبد الرحمان كان مقتنعا بفعالية هذا العسكر الجديد، وذلك بأمره لولي عهده سيدي محمد الذي كان مكلفا بأمر الجيش بالاستكثار من العسكر النظامي.[17]

وبخصوص تطبيق هذا الإصلاح الخاص بإحداث جيش، فقد قام المولى عبد الرحمان بأمر قائد تطوان محمد بن عبد الرحمان أشعاش بتجهيز 500 من العسكر النظامي وذلك سنة 1264 هـ وقدر مبلغا سنويا من أجل عسكر النظام كسوة وسلاحا ومؤونة وذلك تحت إشراف رئيس العسكر المسمى ب "القلعي".

ويجعل الرهوني ابتداء هذا الإصلاح عام 1276 هـ حيث يقول "**العسكرية حادثة بتطاوين عند إحداثها من طرف المولى عبد الرحمان بن هشام، وأول من أحدثها الأغا الحاج عبد السلام أقلعي الريفي الذي ساح في مصر والجزائر والترك فأخذ بعض النظامات العسكرية بها، وأنشأ طابورا بنحو 200 جندي ورتبه ترتيبا تركيا.**" [18].

تجلى الإصلاح العسكري بمدينة تطوان خلال القرن 19 م من خلال عدة مظاهر، من بينها صنع الأسلحة، حيث ساهمت هذه المدينة مساهمة فعالة في تزويد الجيش المغربي إبان هذه المرحلة بقسط وافر من المعدات العسكرية والعتاد الحربي، وقد كان السلاطين العلويون ابتداء من المولى سليمان يعتبرون تطوان الخزان الرئيسي للأسلحة بالمغرب سواء منها المحلية الصنع أو المستوردة من أوروبا نظرا لقرب المدينة من البلدان الأوروبية التي كانت تتوفر على أسلحة أكثر تطورا من الأسلحة المغربية، لذا كان استيرادها يمثل بالنسبة للمغرب رغبة في الحصول على معدات حربية ذات نفس الجودة التي طبعت السلاح الأوروبي خلال القرن 19م.

2-2 صناعة العتاد الحربي وصناعة البنادق وخياطة كساوي الجند:

عرفت تطوان بأنها بلد صناعات مختلفة، وفي مقدمة ما كانت تشتهر بصنعه صناعة الأسلحة وقد مر عليها وقت كانت خلاله مركزا مهما لصنع الأسلحة النارية، وكان صانعوا السلاح موزعين إلى طوائف حسب تخصصهم، فهناك الزنايدية الذين يذيبون الرصاص ويصنعون صفائح آليات القذف، وتدعى حرفتهم ب "تازنايديت"، ثم السرايرية ومهمتهم صنع القناة التي تركب فيها الجعبة وتدعى حرفتهم " تاسرايريت"، وأخيرا الجعابية وهم يركبون السلاح فيصنعون الأنبوب الحديدي الذي يملأ بالبارود، وهذه الحرف الثلاث كانت منتشرة في تطوان انتشارا كبيرا، فقد بلغ عدد متعاطيها حوالي 200 صانع، يصنعون المكاحل إضافة إلى الكور، وكانوا كلهم تطوانيين تقريبا[19]، يتنافسون في هذه الصناعة ويتدارسون كتبها على الطراز التقليدي، وكان بعضهم ينبغ في مهنته نبوغا يتفوق به على نظرائه، ومنهم المعلم احمد عنيقد الذي لقب ب "المعلم الأكبر" وقد كان بارعا في صناعة الرمي بالمهراس، إضافة إلى المعلم "الحاج عبد الرحمان الشولي" الذي كان صاحب مهارة عظيمة في الرمي بالمدفع وإصابة الأغراض بكوره، مع المعرفة التامة بصنع الكور وعمارتها.[20]

وقد كان من أهم زبناء هؤلاء الصناع التطوانيين المهرة الذين ذاع صيتهم، المخزن بالإضافة إلى القبائل المجاورة ومدن مهمة كفاس والرباط وسلا، وبما أن تطوان كانت تصنع مكاحل جيدة تفوق جودتها أحيانا المكاحل الأجنبية فإن السلاطين العلويين كانوا يعتبرون تطوان وجهة مفضلة لهذا الغرض[21].

وبالرغم من أن المدينة تطوان تميزت عن كثير من المدن المغربية الأخرى بكونها عاشت فترة من تاريخها منفردة بنوع من الاستقلالية الذاتية، فإنها نظرا لعمق علاقتها مع المخزن من جهة وصلاتها بالقبائل المجاورة من جهة أخرى ظلت على ارتباط متين مع باقي البلاد في كثير من الميادين، وظلت منذ إعادة تأسيسها إحدى أبرز الحواضر المغربية، حيث لعبت دورا مخزنيا واضحا بما كانت تجلبه من المواد التي يحتاجها المخزن، فإلى جانب المواد المجلوبة من الخارج كالأثواب والحرير والرخام، كانت ترسل للسلطان السلاح والخزائن وملابس الجند[22].

وقد كان الاتصال بين المخزن المركزي وقائد المدينة وثيقا بالرغم من ضعف وسائل المواصلات، حيث كانت ترد على قائد تطوان رسائل من السلطان أو بعض وزرائه تتناول أمور الخدمة الشريفة، وتفصح عموما عن العلاقة الجبائية بين تطوان والمخزن، وتتناول إجراء الأحكام الشرعية بين الرعية، والأمور المستحدثة خلال القرن التاسع عشر، والتي جعلت من المغرب محط أطماع قوى أوروبية

متعددة عازمة على النيل من سيادته، لذا كان قائد تطوان ملزما بإعلام السلطان عن كل أمر يقع في عمالته مهما كبر شأنه أو صغر، وكذا تطبيق أوامر السلطان فيما يهم القوانين الإصلاحية التي فرضتها طبيعة المرحلة الصعبة التي كان يمر منها المغرب، وقد أدت تطوان هذه المهمة خير أداء ليس فقط خلال القرن عشر بل حتى في المرحلة التي كان المغرب لازال يحتفظ فيها بهيبته أمام الدول الأوروبية، فقد أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله ألف من رجال المخزن سنة 1202 هـ، بالتوجه إلى مدينة تطوان ليتم تزويدهم بالسلاح والكسوة، كما ان السلطان مولاي اليزيد عام 1204 هـ/ تزود بالعتاد الحربي في مدينة تطوان ليهاجم سبتة أما خلال القرن التاسع عشر ميلادي، ومع بدأ الضغوطات الأوروبية على المغرب، وكثرة تردد سفن النصارى على الشواطئ المغربية، وبالرغم من أن امتلاك السلاح كان ممنوعا إلا على المخزن فقد وافق المولى سليمان سنة 1213 هـ/ على تعديل هذا القرار والسماح بتسريح بيع السلاح لمن أراده من أهل تطوان بناء على طلب من علمائه، كما كانت مدينة تطوان خلال عهد المولى سليمان تصنع الكساوي للجند إضافة إلى توفره على مخازن للريات والأعلام الخاصة بالجيش المتطوعة القبائل، فقد كافأ المولى سليمان بعضا من أفراد المخزن بإعطائهم كساوي جيدة من ثوب الملف الذي كان من أرفع الثياب التي تلبس في المغرب وتصنع في تطوان سنة 1253 هـ[23].

وخلال فترة حكم المولى عبد الرحمان حافظت مدينة تطوان على أهميتها المتمثلة في تزويد المخزن بما يحتاجه من لوازم الجيش حيث زودته بما مجموعه 2200 من الكساوي وجهت لحضرة السلطان سنة 1243 هـ، وفي نفس السنة وجهت 310 كسوة ممتازة الأعيان الجيش السعيد، ويتبين مما سبق أن تطوان كانت تتوفر على مصانع خاصة بخياطة[24] الكساوي والخزائن لحضرة السلطان واستمرت على هذا المنوال طيلة فترة حكم المولى عبد الرحمان حيث كانت ترسل بانتظام المئات من كساوي الجند إلى جيش السلطان أو إلى المدن التي كان يأمر أن ترسل لها[25].

ونفس الشيء ينطبق على صناعة البنادق حيث كان السلطان يطلب بصفة منتظمة بنادق مما اشتهرت بصنعه مدينة تطوان من البنادق المزخرفة، وهذا ما تؤكده الرسائل الجوابية من السلطان عبد الرحمان لقائد تطوان محمد أشعاش الذي كان يخبره فيها بتوصله بالمئات من العدة أي البنادق، أو بأمره في رسائل أخرى بمضاعفة ما يصنع بتطوان من السلاح نظرا لأن السلطان كان يتنبأ بقرب هجوم فرنسي محتمل على المغرب على غرار ما حصل في الجزائر، وبموازاة الطلبات الرسمية المقدمة من تطوان بأمر من السلطان، كانت تقدم له البنادق لهدايا في جميع المناسبات ومنها عيد المولد النبوي.

وقد كانت هذه الصناعة من أسباب الثروة لمزاوليها إذا كانت تجارتها رائجة، ولكن لما برزت الأسلحة الأوربية بارت هذه الصناعة وأوشك محترفوها أن ينقرضوا[26]، مما دفع السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام سنة 1248هـ إلى محاولة إحياء صنعة المكاحل التي كادت تندثر في تطوان، فأمر القائد محمد أشعاش بصنع 600 مكحلة وتوجيهها إلى القائد السويسي بالرباط وسلا، وقد كان غرض السلطان من ذلك "نفع المعلمين وإحياء صنعتهم" والاستغناء عما يصنع من ذلك في أوروبا، بالمقابل كانت تطوان تخدم السلطان بكل إخلاص ولا تفتر عن إرسال ما يطلبه من البنادق، التي أم السلطان سنة 1259هـ أن يجعل على السلاح المصنوع في هذه المدينة طابعا فيه تاريخ السنة التي صنع فيها، وقد بلغ عدد السلاح الذي طبع 400 مكحلة[27].

كما كانت تطوان تتكلف تطوان تتكلف بتركيب الأسلحة المستوردة من صنع للجعاب والزنادات والأسرة والتي كانت تجارتها رائجة بتطوان، وذلك بأعداد كبيرة تصل للألف[28].

3-2 صناعة خزائن وأخبية الجيش:

كانت صناعة الخياطة بتطوان سائدة ومزدهرة، حيث كانت تقوم بتزويد المخزن إضافة إلى ما ذكرنا من كساوي الجند بالأخبية والخزائن الجيدة والقباب التي كانت ترسل للحضرة السلطانية، فقد أمر المولى سليمان قائد تطوان بجلب الثوب الجيد من أوربا لصنع خزائن من الكتان للجيش[29].

كما أن المولى عبد الرحمان كان يأمر قائد تطوان عبد الرحمان أشعاش بصفة دورية بإرسال خزائن للجيش حيث أمره في 1242هـ بخياطة 40 خزانة من الأثواب الجيدة المتقنة غاية الإتقان، كما أمر السلطان عبد الرحمان قائد تطوان بتزويده بثوب جيد من منتوجات تطوان يقدر ب 12000 ونصف ذراعا من النوع الجيد لصنع الخزائن التي يحتاجها المخزن.

أما في السنة 1244 هـ/ فقد كان عدد الخزائن التي صنعت في تطوان لترسل إلى السلطان أكبر، حيث تمت خياطة ما مقداره 100 خزانة وعدة قباب في غاية الصحة والإتقان.[30]

واستمرت تطوان على هذا المنوال في القيام بدور وطني بارز على الساحة المغربية التي غدتها مخاوف تطاول الأجنبي على وحدتها الترابية خاصة مع ما كان يخلفه تداول الأخبار عن الفظائع التي ارتكبتها الجيش الفرنسي في الجزائر، وذلك بتزويدها للجيش المخزني بما يحتاجه من الخزائن والقباب والتي كانت تعد جزءا لا يتجزأ من العتاد العسكري للجيش المغربي، ففي سنة 1247 هـ أرسلت 10 خزائن وقبتان إلى حضرة السلطان، وفي نفس السنة.

يستفاد من رسالة من المولى عبد الرحمان توصله ب 10 خزائن إضافة إلى 20 خزانة أخرى، وقد كلفت بصنع العشرة الأولى مدينة طنجة، لكن هذه الأخيرة تعذر عليها ذلك، بخلاف تطوان التي استطاعت صنع الجميع، كما أرسلت سنة 1253 هـ، أربع قباب بأعمدتها، إضافة إلى 10 خزانة.

وهكذا يتبين لنا مدى ما كانت تبذله تطوان من أعمال جليلة للجيش المغربي خلال القرن التاسع عشر م، حيث كانت اليد اليمنى للسلطان من خلال تامين أعداد كبيرة من الخزائن التي كان في حاجة لها[31].

3-3 صناعة القنابل:

لم يغفل ملوك المغرب عن الاستعداد الحربي، ونفس الشيء بالنسبة لمدينة تطوان التي قضت قرونا عدة منذ تأسيسها محصنة كونها مقابلة للحدود مع الأجانب وكانت تعد المدينة المغربية الأكثر أهمية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، الذي تقع في ضفته الأخرى دول منها الأصدقاء ومنها الأعداء، وكان بتطوان من المدافع ما لم يكن في مطلق مدن المغرب[32]، لذا كان من البديهي أن تنشط بها صناعة القنابل، فقد كانت العناية بإنتاج البارود، والقنابل، بالغة أقصى حدها إلى درجة أن كل مدينة كانت تتوفر على معامل ومصانع تنتج مقادير كبيرة من البارود والعتاد الحربي، ولا زالت أطلال هذه المعامل قائمة في كل من فاس ومكناس والرباط وتطوان، هذه الأخيرة لم تستفد من هذه الصناعة في حدود ضيقة، بل أفادت المغرب كثيرا خاصة خلال القرن التاسع عشر، فقد أرسلت إلى الجيش المخزن سنة 1247 هـ ما مجموعه 300 قنبلة مرفقة بطبجي ماهر وهو "محمد الفزكار"[33].

4-2 بناء وترميم التحصينات والأبراج:

احتل موضوع التحصينات منذ إعادة بناء المدينة أهمية بارزة، لذا كانت الأسوار والأبراج من المعالم المعمارية الأساسية لمدينة تطوان، وذلك راجع كما أسلفنا الذكر إلى عامل قرب المدينة من أوروبا، ما جعلها عرضة لهجمات دورية كانت السبب في تهديم المدينة أواخر القرن الرابع عشر، أعقبها تأسيس المدينة من الجديد على يد المهاجرين الأندلسيين، وقد شكلت كل من الأسوار والأبواب والأبراج أهم مكونات النظام الدفاعي بالمدينة العتيقة لتطوان، وكان لكل واحد منها دورها المتميز وكان أساسا لمنع الهجمات الساحلية على الخصوص، حيث قدر القائد العسكري الفرنسي نوسي الذي كان متواجد في المدينة تطوان سنة 1845م، وقام بدراسة تحصيناتها، طول هذه الأسوار بحوالي خمسة ألف إلى ستة أمتار وأثر في بعض الأماكن في حين لم يتجاوز سمكها 80 سم، إلى جانب الأسوار والأبواب تم تعزيز تحصينات المدينة بنظام متكامل من الأبراج البحرية لمراقبة سواحلها، وإعطاء "إنذار مبكر" عند بروز أخطار من جهة البحر، إضافة لهذه المهمة زودت بالمدافع لصد هجمات القوى المعادية وأهمها برج رأس الطرف بالرأس الأسود وبرج حلق الواد بمرتيل وبرج أمسا إضافة إلى الأبراج المدفعية وهي أبراج رئيسية كبيرة تتمركز غالبا بجوار البوابات الكبرى بمدينة تطوان لحمايتها، وقد قام المولى عبد الرحمان سنة 1259هـ بتكليف قائد تطوان بالبحث عما عساه أن يكون بتطوان من المدافع المكسرة

والمعيبة التي لم تبقى صالحة ولا يفيد فيها إصلاح لتبدل بأخرى صالحة وقد انطبق هذا الإصلاح على جميع المراسي المغربية[34]، كما قام المولى عبد الرحمان سنة 1830 بإصلاح برج باب العقلة المسمى ببرج "السقالة" الذي كان قد بناه السلطان سيدي محمد بن عبد الله ورمم في عهد المولى سليمان إلى أن قام هو بتزويده بقطع مدفعية فصار بذلك من الأبراج المهمة في المدينة، ثم شيدت تحصينات جديدة بأمر من المولى عبد الرحمان فيما بين 1852 م و1859م حيث تم بناء حصن آخر وهو البرج الجديد الواقع بين المقابر والقصبة كما بنيت ثكنات جديدة وأربع قناطر حول تطوان، وقد قلدت هذه لمباني العسكرية الطرز المعمارية القديمة[35].

وقد كان للمغرب على حدود ستة حصن يسمى "الدار البيضاء" وهو في المحل المعروف الآن بالفنيدق، وقد كان مقرا للمجاهدين المرابطين على الحدود بين سبتة وتطوان، وقد عزم المولى عبد الرحمان سنة 1260هـ على إصلاح هذه الحصن وتسقيفها وعمارتها بالمجاهدين، ونظرا للأهمية التي يكتسيها هذا الحصن وحساسية المرحلة التي جعلت السلطان يبادر بإصلاحه، فقد أشرك في مشروع الإصلاح هذا كلا من قائد تطوان محمد أشعاش الذي كلفه بتزويد الحصن بالأخشاب والآجر ومواد البناء الأخرى وكذا "بوسلهام بن علي" الذي كلفه بالسهر على سير الأعمال بهذا الحصن، وهذا الأخير ألح السلطان بشأن إصلاحه واعتبر أن هذا الموضوع "ينبغي الجد فيه والحزم" لذا كانت الرسائل متتالية بين القائد بوسلهام والأمين الرزيني بشأن الإسراع بتنفيذ أوامر السلطان وإصلاح حصن الدار البيضاء.

كما قام السلطان بأمر قائد تطوان محمد بن عبد الرحمان أشعاش بأن يبني بيوتا للعسة في منطقة الفنيدق وما جاورها إلا انه تراجع عن هذا القرار وارتأى الإبقاء على النوائل وهي بيوت من القصب والطين.

ونظرا لضرورة تخزين الذخيرة الحربية والبارود، فقد أمر السلطان بالبحث عن أماكن تصلح لهذا الغرض، ومن ضمن الأماكن التي تم اختيارها "دار البارود" بتطوان وتسمى أيضا دار البمبة، هذه الأخيرة كانت قد بنيت في عهد السلطان محمد بن عبد الله وكانت تصنع بها قنابل بلغ وزن القنبلة الواحدة منها قنطارين[36].

2-5 رواتب الجيش المغربي بتطوان خلال القرن 19 م.

من الأمور التي أولاها الملوك العلويون خلال القرن 19 م أهمية كبيرة مسألة رواتب الجيش المخزني، وكذا المكافآت الدورية التي كانوا يكافؤون بها الجنود تشجيعا لهم، وضمانا لإخلاصهم وتحفيزا لهم لبذل المزيد من الجهد والولاء التام للسلطة المخزنية والوطن بشكل عام بالنظر للظرفية الخاصة التي كان يمر بها المغرب والتي فرضت وجود جيش يخلص إخلاصا تاما لوطنه، حتى يستطيع مواجهة أعداء الوطن.

فقد أمر المولى سليمان قائده على تطوان عبد الرحمان أشعاش سنة 1234هـ بزيادة راتب الحراس المرابطين على حدود سبتة، واستمر المولى عبد الرحمان بن هشام من بعده على هذه السنة، حيث أنعم على بحرية تطوان وطبجيتها ومخازنيتها بمبلغ مهم من المال ومقداره 2000 ريال سنة 1241 هـ، كما كافأ السلطان مجموعة من مخازنية تطوان قاموا بخدمته في نفس السنة بخمسة مثاقيل لكل واحد منهم وفي سنة 1246 هـ/1830م أي السنة التي عرفت احتلال فرنسا للجزائر تبرع المولى عبد الرحمان بهبة سلطانية على البحرية والطبجية والمخازنية بتطوان تقدر ب 2000 مثقال، ولا شك أن مثل هذه الهبات في هذه الظرفية هدف من خلالها إلى كسب ثقة هذه الفئة الهامة من الموظفين التابعين للجيش.

وقد وزعت هذه الموال على ثلاث فئات الأولى: فئة البحرية، وبلغ عدد المنضوين تحتها 101 بحريا، أما الفئة الثانية فضمت أفراد الطبجية وعددهم 98 فردا. وبالنسبة للائحة الثالثة فهي خاصة بالجيش الذي بلغ أفراده في تطوان 999 فردا[37].

واستمرت إنعامات السلطان عبد الرحمان بن هشام على المخلصين من أفراد الجيش المخزني بمدينة تطوان حيث كافأ طبجيين ماهرين سنة 1247 هـ وهما الطبجي محمد نخشه والمجاهد الفزكاري بعد قيامهما بخدمة السلطان وتمثلت المكافأة في 30 ريالا لكل واحد منهم.

كما أنعم على جيش تطوان سنة 1253 هـ ب 100 ريال، وفي سنة 1255 هـ زاد على هذا المبلغ وتم توزيع مبالغ مالية مهمة على مخازنية تطوان وطبجيتها وبحريتها بما مقداره 1000 ريال مقسمة بينهم، ونفس هذا المبلغ منحه السلطان عبد الرحمان بن هشام سنة 1258 لمخازنية تطوان وطبجيتها وبحريتها مقسمة بينهم[38].

وكثيرا ما كانت هذه الهبات السلطانية تتوالى على جيشه بهذه الناحية خاصة مع حرس السلطان على بث روح التضحية والجهاد في نفوس أبناء شعبه "فقد أنعمنا على خدامنا المجاهدين الطبجية والبحرية من أهل تطوان بألف ريال في 8 جمادى الأولى 1620هـ.[39]

إن هذه الالتفافات الكريمة من طرف السلطان عبد الرحمان بن هشام للجيش المخزني بتطوان، جاءت نتيجة وعيه التام بالمهام الكبيرة التي تقع على عاتقه خاصة مع تواجده في مدينة تطوان ذات الموقع الجغرافي الحساس، إلا أن وعي السلطة المخزنية سيزداد انفتاحا على حاجيات هذا الجيش والتي تتعدى المكتسبات المالية، إلى المكتسبات التنظيمية، وهذا ما حدا بالسلطان إلى الشروع في تنظيم الجيش المغربي وإصلاحه فيما سمي بعسكر النظام كما سلف الذكر.

خاتمة

بالرغم من مجهودات المخزن إنجاح الإصلاح العسكري في مدينة تطوان ببحثه عن الوسائل الكفيلة بذلك وإدماجه لعناصر مساعدة مثل استعانته بخبرة المهاجرين الجزائريين إلى مدينة تطوان، فقد فشلت مجهوداته قصد الإصلاح على جميع الأصعدة ويمكن تفسير هذا الفشل بقلة الوسائل التي تم اعتمادها وندرة الأطر المؤهلة وقلة تجربة الأجهزة المغربية وعدم فعالية التدابير التي تم اتخاذها، وفشلت الإصلاحات العسكرية كذلك بسبب رفضها من طرف كبار الموظفين خوفا على مصالحهم كما رفضها الفقهاء على أساس أنها مناقضة الإسلام والأعراف المغربية وتزايد نفوذ هذا التيار المعارض للإصلاحات وأثر على سياسة سلاطين مغرب القرن 19م المتطلعين لإصلاحات عسكرية تحفظ استقلال البلاد.

وتبقى هذه العوامل الداخلية على أهميتها ثانوية بالمقارنة مع موقف القوى الأجنبية وتنافسها مع بعضها للدفاع عن مصالحها، ففرنسا كانت تفضل أن يوجد في إفريقيا جار ضعيف عوض دولة مسلمة قوية.

الهوامش:

[1]-بوطالب (إبراهيم)، مفهوم الإصلاح في القرن 19 م، الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مطبعة النجاح الجديدة 17 زنقة الحاج الجيلالي العوفير الدار البيضاء، 1407 هـ/1986م، ص: 77

[2].- Jean- Luis Miège, le maroc et l'europe 1930- 1894,édition la porte, Rabat, 1989. P 96

[3]-برادة (ثريا)،"الجيش المغربي خلال القرن التاسع عشر"، المملكة المغربية كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 37، 1997، ص: 183-188.

[4]-المشرفي (محمد)، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، الجزء الثاني، تحقيق د ادريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، الطبعة الأولى، 2005، ج2، ص 107.

[5]-الناصري (أحمد)، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق الأستاذين جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج9 الطبعة الأولى، دار الكتاب الدار البيضاء 1997، ص 50.

[6]- Jean- Luis Miège, Tétouan à travers les siècles, institut francais de Tétouan 1995.p 67

[7]-المشرفي، نفسه، ج 2، ص 292.

[8]- عاطف (جمال) "تطوان قبل الحماية، ملاحظات حول العلاقات المغربية الإسبانية قبيل حرب تطوان". كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 1994، ص: 150

[9]-برادة (ثريا)، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، ص 212.

[10]-بن عبد الله (عبد العزيز)، تطوان عاصمة الشمال ومنبع إشعاعها، منشورات جمعية تطاون أمسير، الطبعة الأولى، 1427 هـ/ 2006م.

[11]-داوود (محمد)، تاريخ تطوان، ج 8، المطبعة الملكية الرباط، 1398 هـ/1978م، ص 19.

[12]-ميجيج (جون لوي) وآخرون، تطوان الحاضرة الأندلسية، ترجمة مصطفى غطيس 2002، الطوريس 58، الطبعة الأولى، ص 10.

[13]-داوود (محمد)، تاريخ تطوان، ج8، ص 364.

[14]-داوود (محمد)، تاريخ تطوان، ج 8، ص 289-290.

[15]-داوود، المرجع نفسه، ج8، ص 332.

[16]-المشرفي (محمد)، الحلل البهية، ج2، ص 77.

[17]-داوود (محمد)، المرجع نفسه، ج3، ص 309.

[18]–الرهوني (أحمد)، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، ج1، ص 50.

[19]–السعود (عبد العزيز)، تطوان خلال القرن التاسع عشر 1996، تطوان، مطبعة الحداد، الطبعة الأولى، ص 32-33.

[20]– جولي (ألكسندر)، الحرف والصنائع بتطوان خلال العقد الأول من القرن العشرين، ترجمة جمال الدين العماري، مكتبة سلمى الثقافية، الطبعة الأولى، 2021، ص: 32

[21]–السعود، نفس المرجع السابق، ص 32.

[22]–نفس المرجع، ص 123.

[23]–داود، "تاريخ تطوان"، الجزء الثالث، ص: 181- 233

[24]– داوود، نفس المرجع، ج8، ص 52.

[25]–نفسه، ج8، ص 126-148.

[26] – -Boussif Ouasti, Tétouan de Delo ou la fille de Grenade, Association Tétouan Asmir, 1996.p 16

[27]–السعود، نفس المرجع السابق، ص 32.

[28]–الرهوني، نفس المصدر السابق، ص 224.

[29]–داود، نفس المصدر، ج 8، ص 43.

[30]– داود، نفس المصدر، ج 8، ص 180.

[31]–نفسه، ص: 121-141-235-253-304.

[32]–نفس المصدر، ج 8، ص 254.

[33]–المريني عبد الحق، "الجيش المغربي عبر التاريخ"

[34]–جون لوي ميج وآخرون، تطوان الحاضرة الأندلسية، ص 57.

[35]–برادة (ثريا)، المرجع نفسه، ص 228.

[36] – السعود، تطوان خلال القرن التاسع عشر، ص 117

[37]–داود (محمد)، المصدر نفسه، ج8، ص 49-210.

[38]–المصدر نفسه، ج8، ص 260-267-306-331-366-385.

[39]–المصدر نفسه، ج9، ص 41.